

فما هو الفعل النفسي؟ لقد أفرد أرسطو كتابًا طويلًا مفصلاً عن النفس وقواها وبحث علاقة النفس والجسم في كتابه ما بعد الطبيعة، وفي رأيه أن النفس هي صورة الجسم والاثنان يكونان جوهرًا واحدًا هو الإنسان، فإذا ما انحلَّ جسم الإنسان انفصمت العرى التي تربط الجسم بالنفس وزال الاثنان معًا. ولكن يعتبر أرسطو أن للنفس الإنسانية ثلاث قوى: الغذائية vegetative أو النباتية المسؤولة عن نمو الإنسان والقوة الغضبية أو الشهوانية أو الحيوانية animal ومن ثم القوة العاقلة rational وأسمى ما في القوة العاقلة العقل intellect وربما العقل الفعال active intellect الذي قد يتمتع بقوة مفارقة لا تفنى بفناء الجسم. فالفعل أو المجهود النفسي هو أحد الأفعال التي تقوم بها النفس أو الإنسان إن كانت تتعلق بالنمو أو الشهوة أو العقل، وبالتالي يمكن الحكم على أي فعل إنساني عما إذا كان يقود إلى الخير أو السعادة أم لا. ولمعرفة ذلك يجب أن نسأل عما إذا كان ذلك الفعل قد تم بمقتضى الفضيلة أم لا. فما هي الفضيلة؟ ولكن قبل ذلك علينا أن نتحدث قليلاً عن السعادة.

فما هي السعادة؟ هل السعادة شعور يتتابنا بعد الفراغ من عمل مثل الضحك بعد سماع نكتة أو رؤية شيء مضحك؟ أم أن السعادة دافع يسبق الأفعال ويوجه لفعل الخير؟ يستخدم أرسطو كلمة (يودامونيا) (Eudamonia) (التي يترجمها البعض إلى الإنكليزية (well-living) أو (العيش السليم) أو (الحياة الجيدة) ويقصد أرسطو من ذلك القول بأن السعادة هي غاية وليست بداية عاطفية أو شعورًا أو دافعًا. وهي كغاية تختلف عن كل غاية أخرى إذ إنها غاية يسعى الإنسان إليها من أجل ذاتها وليس كوسيلة لغاية أخرى. ويميز أرسطو بين الغاية التي هي وسيلة لغاية أخرى والغاية التي هي غاية في حد ذاتها، ويعطي مثالاً على ذلك، أن المال هو غاية يسعى الإنسان إليها من أجل غايات أخرى، والسلطة أيضًا يسعى الإنسان من أجل الحصول على الجاه والمال والسعادة، والصحة لا يطلبها الإنسان لذاتها بل من أجل القيام بأعمال أخرى وللحصول على السعادة. وليس هناك

غاية في حد ذاتها سوى السعادة. وهناك من يعرف السعادة على أنها اللذة، ولكن أرسطو يخالف ذلك القول لأنه لو كانت اللذة هي الغاية بحد ذاتها لما كان بالإمكان أن يرضى الإنسان أن يقاسي الألم أو يتحملة لأن الألم سيئ وغير خير. bad فإذا ما عرفنا اللذة بالسعادة والسعادة هي الخير، فكل ما لا يجلب اللذة هو غير خير أو شر وبالتالي يكون الألم شرًا عكس ما يعتقد الكثير من الناس. وإذا كانت اللذة خيرًا، فالألم شر ويجب النفور منه، ولكن الإنسان كثيرًا ما يتحمل الألم طوعًا في حالات عدة وخاصة من أجل الحصول على خير أكبر كما هي الحال في تحمل الآلام حين الولادة أو الرضوخ لنصائح الأطباء وقبول الأدوية التي ينصحون بها وغيرها، فليس بالضرورة أن يكون كل ألم سيئًا، كما أنه ليس بالضرورة أن تكون كل لذة خيرًا. إذ أن هناك ملذات سيئة كلذة الإنسان الذي يفرح بتعذيب الأبرياء، كما كان يفعل الرومان قديما برمي المسيحيين الذين يؤمنون بالإله الواحد لتفترسهم الوحوش الضارية في ملاعب اللهو والمجون في روما وغيرها من المدن الرومانية. ولما كانت بعض الملذات شرًا وبعض الآلام خيرًا فلا يمكن إذاً أن تكون اللذة غاية بحد ذاتها، بينما السعادة في نظر أرسطو هي تلك الغاية التي هي غاية بحد ذاتها. ولا بد من أن تكون هناك غاية بحد ذاتها. لأنه إذا لم يكن هناك غاية بحد ذاتها وكانت كل غاية يختارها الإنسان هي من أجل غاية أخرى، لتسلسل الأمر إلى ما لا نهاية، ولاستحال التحدث عن علم مستقل هو علم الأخلاق. فلا بد لتسلسل الغايات أن ينتهي ولا بد من تحديد السعادة بأنها تلك الغاية التي يقصدها الإنسان من أجل ذاتها وليس من أجل أي شيء آخر.

لقد تحددت الآن المعالم الأساسية لنظرية السعادة عند أرسطو. فنقطة البداية هي ذلك المجهود أو الفعل الذي تقوم به النفس الإنسانية بما فيها الجسم الإنساني ونقطة النهاية هي السعادة التي هي غاية يسعى إليها الإنسان من أجل ذاتها، فقد يكون الفعل فعل المشي أو الأكل أو السرقة أو مجرد شعور كالحب أو الكراهية أو الحسد أو الرغبة في الانتحار أو

في قتل شخص آخر. فالأفعال تدخل في نطاق العمل الأخلاقي كما تدخل المشاعر والرغبات حتى ولو لم تؤد إلى أي عمل. فالحسد قد يبقى مجرد شعور يراود الإنسان، فينظر إلى ما يخص شخصاً آخر ويشتهي من دون القيام بأي عمل يضر بذلك الإنسان. ومع هذا تسمح نظرية أرسطو في الأخلاق بالحكم على مشاعر من هذا القبيل فيما إذا كانت أخلاقية أم لا، ولكننا نهتم الآن في الدرجة الأولى بالأفعال التي تسعى إلى تحقيق السعادة. والشرط الأساسي للأفعال التي تقود إلى السعادة أن لا يتم تحقيقها أو الوصول إليها إلا من خلال وسيلة فاضلة. وإذا قمنا بعمل ما لا يتحقق بواسطة الفضيلة فلن يؤدي إلى السعادة مهما كان، ويجب الحكم على ذلك الفعل بأنه غير أخلاقي وغير خير، بل سيئ. فالشرط الضروري والكافي لكي يقود الفعل النفسي إلى السعادة أن يكون قد تم من خلال الفضيلة وعندما تتحقق السعادة يغمر الإنسان الخير ويكون قد قام بفعل أخلاقي حقاً.

فما هي الفضيلة إذا؟ وهكذا نجد أن نظرية الأخلاق والسعادة عند أرسطو تتوقف على الأعمال الفاضلة، أي التي تتم من خلال الفضيلة. ويعرف أرسطو الفضيلة كوسط بين طرفين، كل منهما رذيلة بحد ذاته، وتحديد الوسط الأخلاقي هو فعل عقلي لا يمكن القيام به شخص غير الفاعل. ولا يستطيع أن ينوب أحد عن أحد آخر في الأفعال الأخلاقية وكل إنسان هو مسؤول في الدرجة الأولى عن أفعاله وبالتالي عن سعادته أو شقائه، فالإنسان هو من يحقق سعادته من خلال أعماله الفاضلة أو يجني الشقاء من خلال أعماله غير الفاضلة. قد يستطيع أحد أن يعظ الآخرين أو يشير عليهم بفعل شيء ما يعتقد بكل إخلاص أن فعل ذلك الشيء قد يؤدي إلى سعادتهم وقد تحصل لهم السعادة فيما لو اتبعوا نصائحه، وقد يلجأ البعض إلى تقليد الآخرين الذين يظن فيهم الخير ويقوم بالأعمال التي يقومون بها ويحصل على السعادة كما يحصلون. وفعلاً هذا ما يحصل في بداية الحياة الأخلاقية. فالمرء يقلد أباه أو أخاه أو صديقه أو معلمه في فعل الأشياء التي تقود إلى سعادته ويتجنب القيام بالأعمال التي يتجنبون

القيام بها، لأنها تقود إلى التعاسة والشقاء، ولكن أرسطو يعتقد أن الحياة لا يتسع فيها المجال إلا إلى التقليد فإنما هي حياة بائسة يتخلى فيها الإنسان عن أعز ما لديه وأهم ما يملكه، ألا وهو القوة العاقلة التي تحكم على الفضيلة في الأعمال، لأن الفضيلة هي وسط بين طرفين كل منهما رذيلة، ولكن هذا الوسط ليس منقوشاً في حجر ولا يشبه الوسط الحسابي arithmetic means في علم الحساب. فالوسط الحسابي لا يختلف فيه إثنان والجميع يتفق على أنه النقطة التي تبعد ذات المسافة عن نقطتين. فالخمسمة مثلاً هي نقطة وسط بين الواحد والعشرة، ومركز الدائرة هو نقطة وسط الدائرة التي تبعد نفس المسافة عن أية نقطة على محيط الدائرة.

ولكننا نصل إلى هذا الوسط الحسابي من خلال معادلة حسابية معينة كقسمة الخط الفاصل بين نقطتين إلى قسمين متساويين، بينما الوسط الأخلاقي لا يقاس بنفس الطريقة الحسابية، بل هو أشبه بمفهوم الاعتدال حين يقال "خير الأمور أوسطها" أو الاعتدال بتجنب التطرف. ولكن هناك تشابه في معنى الوسطين، لأن الوصول إلى الوسط الأخلاقي يتطلب حساب الوسط لكل عمل نقوم به. ولما كان الإنسان يقوم بعدد هائل من الأعمال اليومية فعليه أن يقرر الوسط في كل منها جميعاً، ولما كانت أحوال الإنسان تتغير من يوم إلى يوم ولحظة إلى لحظة، فعلى الإنسان أن يتوصل لمعرفة أوسط الأمور بنفسه وأن لا يعتمد على الآخرين في تقرير وسط كل عمل. ولو لجأ إلى هذه الوسيلة على الدوام، لأصبح أشبه بالحيوان أو الروبوت الذي يحتاج إلى إرشاد دائم وبرمجة متواصلة.

بالإضافة لا يستطيع أي إنسان أن يحتل مكان إنسان آخر مهما تقاربت الآراء والمشارب، وبالتالي يختلف تحديد ما هو وسط من شخص إلى آخر، وبينما يقود اختيار الأول إلى السعادة، قد يقود الاختيار الثاني إلى التعاسة. فقد يكون مثلاً اختيار الوسط في الطعام مفيداً لشخص ما ولكن اختيار نفس ذلك الوسط من قبل شخص آخر قد يقود إلى المرض والشقاء وربما الموت، ويمثل أرسطو على ذلك بحاجة شخص عادي إلى

رغيف خبز ليشبع، بينما يحتاج ملاكم لعدة أرغفة مع وجبة دسمة من اللحوم. كما أن تحديد الوسط قد يختلف من وقت لآخر، فعلى الإنسان أن يعمل فكره في الأمر ويميز وسائط الأمور والأعمال دائمًا، ولا يمكنه الوصول إلى تلك النتيجة من دون الاعتماد على عقله وتقليب الأمور من وجوه شتى. وبالتالي فالعودة إلى الآخرين والاعتماد عليهم في تقرير كل ما يجب عليه فعله إنما هو تخل عن عقلانيته وإنسانيته، إذ يصبح يعيش حالة على الآخرين تمامًا كما هو الحال مع النبات والحيوانات غير العاقلة.

فاختيار الوسط هو الفضيلة والتطرف هو الرذيلة ولا يمكن أن تحصل السعادة من دون اختيار الوسط. فالوسط في الأعمال التي تتطلب الاندفاع هي الشجاعة والطرفان هما التهور أي الاندفاع في كل الأوقات وفي كل الأشياء وعدم التمييز بينها، بينما الطرف الآخر هو الإحجام وعدم الإتيان بأي عمل للدفاع عن النفس أو مساعدة الآخرين. والكرم هو وسط بين التبذير من ناحية والبخل من ناحية أخرى، فالرجل الكريم هو الشخص الذي يعرف متى يعطي ماله الخاص إلى المحتاجين والمبلغ الذي يتبرع به والطريقة التي يوزع فيها ماله. بينما المبذر هو الشخص الذي يصرف أمواله كيفما يشاء ويعطي من دون التفكير في عواقب عطائه ومدى تأثير ذلك العطاء على ما تبقى لديه من مال أو ثروة، أما البخيل فهو الإنسان الذي لا يعطي الآخرين أي شيء مما عنده ويكدس أمواله فيكون كما يقول الجاحظ: أشبه بالحمار الذي يحمل الذهب على ظهره ولا يعرف كيف يستفيد منه.

ولكن، هناك أعمال ومشاعر لا تقبل التقسيم بهذا القياس، فقتل الآخرين بحد ذاته شيء سيئ ولا يمكن أن يكون وسطًا بين طرفين. فلا يكون قتل عشرة أشخاص جيدًا بينما قتل عشرين سيئًا أو قتل واحد سيئًا لأن العشرة هي وسط بين 1 و 20 وكذلك السرقة، فالسرقة لا تكون جيدة إذا تمت بحدود الوسط. ومن المشاعر التي لا تقبل الحدود الكراهية مثلًا، فلا يكون كره شخص ما حسنًا إذا ما كرهناه باعتدال، فالكراهية هي كالسرقة والقتل سيئة بحد ذاتها ولا تكون جيدة بأية حال من الأحوال.

ويميز أرسطو بين الفضيلة الأخلاقية moral virtue والفضيلة العقلية theoretical virtue. فبينما الفضيلة الأخلاقية هي وسط بين طرفين، ليس في الفضيلة العقلية وسط ولا طرف. الفضيلة العقلية هي الانصراف إلى العلوم ومتابعتها بكل ما أوتي الإنسان من قوة، ولا ننصرف عن متابعة العلوم فيما إذا كانت لا تجلب لنا منفعة. فالانصراف إلى دراسة الطب لا يكون للنفع المادي الذي يجنيه الدارس من تطبيب الناس، ولا الانصراف عن دراسة العلم الإلهي أو الميتافيزيقا يكون لعدم الاستفادة المادية من هذا العلم، فتتبع العلوم والانصراف لها ضروري للإنسان لأنه لا يستطيع تحقيق ذاته أو الحصول على السعادة الكاملة من دونها. فكما يحتاج الإنسان إلى الفضيلة الأخلاقية لكي يحصل على السعادة، كذلك يحتاج إلى الفضيلة العقلية أو النظرية للحصول على كمال السعادة. والحصول على السعادة هو تحقيق كمال الإنسان الذي هو العلة الغائية لوجود الإنسان، فكما أن غاية الآلة الموسيقية هو أن تأتي بموسيقى جيدة، كذلك هي غاية الإنسان أن يحصل على السعادة، ولكن السعادة لا تحصل إلا من خلال وسائل فاضلة، ولا يمكن للإنسان أن يكون سعيداً إن لم يكن فاضلاً في الدرجة الأولى.

ولو فكر الإنسان ملياً لوجد أن نظرة أرسطو إلى السعادة لا يخبو بريقها مع تقادم الزمن. فما نفع الحصول على المال أو الجاه أو السلطة إذا كانت ستؤدي بالإنسان إلى أن يعرض أصابعه ندماً على ما قام به من أعمال سيئة للوصول إلى تلك الغايات؟ وإن يكن التمرس بالردائل قد أطفأ نار الضمير والندم عند الإنسان، غير أن اللذة التي يحصل عليها تبقى سطحية وبلا عمق وبلا بركة. يكون ذلك الإنسان كمن ربح العالم كله وخسر نفسه أي سعادته. وأهم ما في الأمر أن من يحصل على تلك الغايات بطرق غير فاضلة، لا يكون في مكانه أن يفتخر بها أو أن تصبح إرثاً لمن يخلفه في الأرض من ولد أو أحفاد، كما أنه لا يستطيع أن يتباهى بها أمام الناس كما يتباهى الناس في أعمالهم التي كسبها بجدهم وفضيلتهم.